الفصل الثاني عشر

كعبة نجران[١]

قد يكون عرض وادي حبونا - وهو مميز عن مجرى السيل المؤثر - أكثر من الميل الواحد، غير أنه من الصعب تحديد الموقع، على الجانب البعيد، الذي يختفي منه الوادي بلا حس في السهل الرملي المستوي. كان سيرنا جيداً في كل من الوادي والسهل الذي يكون جزء منه فوق رمال ثابتة، وجزء آخر فوق مساحات من الحصى (رقة)، وتتخللها من فترة لأخرى هضبات رملية صغيرة، ربما معلَّمة آثار مساحات قديمة لمجرى السيل، وتحيط بها جنبات الطلح والعبال[٢].

قطعنا مسافة ستة أميال فوق هذا الضرب من سهول الأودية إلى أن وصلنا إلى تلال على الجانب البعيد وتوقفنا عندها على ممر يقع بين سلسلتين منخفضتين من جرانيت أسود وبازالت. كانت هذه السلاسل، إلى اليسار، تتكون من المختلف، وحليث، وضبع، بهذا الترتيب تجاه الجنوب بينما برزت تلال أكلب القارورية الشكل، إلى البعيد، في الصحراء العظيمة ناحية الجنوب الشرقي، وعلى يسارها حمير وسلسلة حميقة المنخفضة إلى اليمين. يسمى السهل المغطى

(١) كعبة نجران: - بناء ديني مسيحي، شيده عبدالمدان بن الديان الحارثي الذي ينتسب إلى بني الحارث بن كعب من قبائل مذحج. وقد تم الاعتناء بهد الكعبة حتى صار يزورها الأدباء والشعراء القدماء ويقولون فيها قصائد تعد من روائع الشعر. للمزيد انظر: غيثان بن جريس. **نجران**، جـ٢، ص ٥٢ وما بعدها (ابن جريس).

(٢) العبال: شجر ينبت في الجبال والهضاب، وبخاصة في المرتفعات الباردة، ويمتاز بأزهاره البيضاء الجميلة، ويصل ارتفاعه عن الأرض إلى ثلاثة أمتار تقريباً. (ابن جريس).

بالشجيرات الخفيفة والذي يمتد من عند الجانب الأيمن لوادي حبونا تجاه تلال أكلب باسم جذيم. كانت سلسلة حضب غير واضحة تقع بعيداً ناحية الجنوب، مكّونة الجانب الأيسر لسفح منخفض لوادي نجران. وقفت عن قرب، وعلى الجانب البعيد لسهل جذيم سلسلة تصلال[1] والتي كانت هدفنا الفوري أثناء عبورنا لسهل درة الداخلي، الممتلئ بعشب النصي الوافر، الجاف، في اتجاه الجنوب على امتداد طريق السيارات الواضح الذي ظل محازياً للحافة الشرقية للتلال.

وصلنا إلى بئر تسمى برق الدرة، بعد أن قطعنا مسافة عشرة أميال منذ مغادرتنا الحصينية. كان بارزاً في السهل والذي من عنده استطعنا أن نرى كل مواقع أكلب (خمسة أو عشرة منها) في الصحراء. يتجه طريق نجران من هذا الموقع ناحية الجنوب الغربي مطوقاً التلال إلى قمة تسمى شعثة، والتي من عندها يميل تدريجياً إلى اليمين ويدخل وادي نجران. تقع تصلال، وهي سلسلة معتبرة، كما تشاهد من هذا المكان، ناحية الجنوب الشرقي عبر سهل الدرة - وجذيم. قيل لنا أن وادي نجران ينساب ماراً ببئر الخضراء وعلى امتداد سفح حضب يعبر بين تلال نويدرة ورويكبة إلى الصحراء ماراً بأقصى بقعة جنوبية من نقاط أكلب. ويقال أيضاً أن مجراه، الممتلئ بالغطاء النباتي الرمادي - الأخضر والمكوّن من الحمض والطرفاء... إلخ. يمكن مشاهدته من مسافة تصل إلى (٥٠) ميلاً إلى الشرق من الخضراء، ثم يذوب بعد ذلك في الرمال العظيمة. أمكننا رؤية سلسلة برك المنخفضة في بطن وادي نجران أعلى من بئر الخضراء، تجاه الجنوب الغربي من برق الدرة وكذلك رؤية العديد من التلال الأخرى على الجانب البعيد من الوادي.

(١) وأحياناً يطلق على جبل (تصلال) اسم (جبل كعبة نجران). (ابن جريس).

يقول مثل سائر عن برك: «إذا جاك الحيا فارفع الصوت وأعلن من رأس برك منادى»[١].

أستطيع أن أرى تل تنصب الداكن -البعض يسميه خطأ جبل سلة- إلى البعيد في الصحراء، عند الطرف الشرقي لتصلال، ويعتبر أقصى بقعة شرقية للحدود اليمنية السعودية، وقد تم تعليمه منذ سنتين قبل زيارتي، بواسطة لجنة حدود مشتركة، والتي لم تقم بالفعل بزيارة تنصاب لتتوج رأسه بركام من الحجارة. كان الخط الحدودي الفعلي هو الوسط الباهت الممتلئ بالرمال لوادي سلة، الذي يمر بين تنصاب على جانب الوادي الأيمن والهضبتين الصغيرتين اللتين تسميان أبرقين، وقد برز رأساهما فقط خارج الرمل الرهيب. يبدو أن وادي سلة ما هو إلا الامتداد الصحراوي لوادي الفرعه، وهو الوادي التالي ناحية الجنوب من نجران. لا يوجد ما يمكن رؤيته إلى الشرق من الشريط الذي يربط بين حبونا، وضبع، وحامر، وأكلب، وتنصاب -اللهم إلاَّ قفار لا نهاية لها- هو الامتداد الميت المستوي للربع الخالي.

وصلنا إلى الطرف الشرقي من تصلال بعد قيادة سريعة وجيدة لمسافة أربعة أميال عبر سهل الدرة، الذي يندمج هنا في جذيم بما عليه من شجيرات خفيضة وهضبات رملية عليها شجيرات أراك. يتخذ سهل جذيم، الذي يمتد من وادي نجران، مظهراً يدل على أنه جزء من دلتا الأخير، وربما يكون هذا هو الحال. تنهي صخرة تصلال تجاه الشرق عند جدار عمودي ارتفاعه حوالي (١٥٠) إلى (٢٠٠) قدم ويبلغ طوله ما يربو على ربع الميل. يتجه الصخر إلى الخلف من عند نهايته

(١) يوجد عدد كبير من الأمثال الشعبية المحلية في منطقة نجران وما جاورها من المناطق، ومثل هذا التراث يستحق الدراسة العلمية الأكاديمية وبخاصة في الجوانب اللغوية والتاريخية والاجتماعية. (ابن جريس).

الجنوبية، وهي أقل اعتدالاً وأكثر مصادمة، وفي اتجاه جنوب غربي ولمسافة (٢٠٠) ياردة.

وصلنا إلى مقبرة معتبرة عند نهاية هذا الجانب كانت تحتوي على قبور عديدة مبنية من بلكات جرانيتية غير مشذبة. ارتفع البناء الفوقي لأكبر القبور إلى ثلاثة أقدام وقياسه حوالي الخطوتين، ومشتملاً على طبقات عديدة من حجارة، بينما كانت بقية القبور منخفضة، وكان بعضها بيضاوياً، والآخر مستطيلاً وكان أسلوب البناء واحداً. كان وضع المقبرة وكل القبور التي تحتوي عليها عند زاوية (٢٥٥) درجة إلى (٧٥) درجة في اتجاه وجه الصخرة، وبدا القبر الرئيس كأنه المركزي من بين مجموعة من تسعة قبور هو الأقرب منها إلى الصخرة -عدا أن قبراً مربعاً صغيراً وآخر مستديراً، قد تعارض بينه وبين قاعدة الصخرة، بينما برز اثنان آخران (كلاهما صغير) من عند الخط الأمامي بالقرب من الزاوية الشرقية للمجموعة-. كان عدد القبور، في الإجمالي في هذه المقبرة، حوالي (٣٠) قبراً والتي تواصلت بعد مسافة خالية يقدر بـ (٢٥) قدماً مع مقبرة أخرى، تحتوي على حوالي (٥٠) قبراً في الترتيب والاتجاه نفسه، وهي قبور لها الشكل العام نفسه كالبقية، غير أنها أقل طموحاً، ومواجهة للصخرة[١].

انتهى هذا عند الزاوية الجنوبية الغربية للصخرة، والتي يمتد سطحها الآن تجاه الشمال الغربي مسافة (١٣٠) ياردة إلى حيث توجد أكثر السمات إثارة ولفتاً للنظر

(١) من خلال جولاتي في المنطقة الممتدة من نجران إلى الطائف، فقد شاهدت العديد من القبور والمقابر القديمة التي يوجد بها بعض الأضرحة المبنية فوق سطح الأرض، وتتكون بعضها من دور، ودورين، وثلاثة، وأحياناً يظهر بعضها منقوشاً بحجر المرو. حبذا لو نالها الاهتمام البحثي من قبل المتخصصين والأقسام المتخصصة في جامعات المملكة. (ابن جريس).

في تل تصـلال. وفجـأة وجدنا أنفـسنا في مـواجهـة ما يمكن أن نعـده «الطريق الموكبي»[١]. كانت قمتاه المستدقتان منحنيتين على قاعدة الصخرة على كلا الطرفين في شـبه دائرة ذات قطر يقـارب (١٧٤) خطوة (قل ١٤٥ ياردة). يجـري المطاف (الطريق الموكبي) على الحافة الخـارجية لشبه الدائرة كانت معـلَّمة ببلكات متوسطة الحجم أو صغيرة من حجارة موضوعة على جانبي الممشى، الذي كان عرضه أربع خطوات في المتوسط، غير أنها، هنا وهناك قد اختل ترتيبها بسبب السيول أو بفعل الإنسان.

كان الشكل العـام للطريق الموكبي، على أية حال، واضـحاً بما فيـه الكفاية. يوجد عند طرفه الغربي وعلى مـسافة (٢٥) خطوة (قل ٢٠ ياردة) من عند قاعدة التل، مساحة مستطيلة تقـريباً، طولها ثلاث ونصف خطوة على خط اتجاه شرق – غرب، وخمس خطوات تجاه شمال – جنوب. وكـانت محاطة ببلوكات حجرية، بدأ هذا وكأنه مكان محـجوز أو غرفة خاصة أو قد يكون مـعبداً، على الرغم من أنه لا يوجد دليل على أنه كـانت هنالك مبانٍ من أي نوع. قد تكون هـذه السمة هي النهاية الطرفـية للقمة المسـتدقة الغربيـة «للطريق الموكبي» والذي كانت قـمته المستدقة الشرقـية متناثرة بسبب الصخور المتساقطة وآثار تـشويش أخرى عليها، مما لم يدعم قناعتي باحتمال وجود «غرفة» مماثلة أخرى عند تلك النهاية.

لاحظت على أي حال، في حـينها، أن هنالك مساحـة محجوزة أو حـجرة متطابقة عند هذا الطرف أيـضاً، وداخل شبه الدائرة ومساحـتها (٣X٥) خطوات. علماً بأن الحجـارة المكوّنة للشكل العام قد اخـتل ترتيبها بشكل كـبير. لاحظت،

(١) يمكن أيضاً ترجمة (Proccssionalway) (بالطريق الجنائزي) حيث كان الكهنة يقـومون بأداء جميع مراسم الدفن بواسطة هذا الطريق الذي يرتبط دائماً بمعبد ومقبرة. (ابن جريس).

على أية حال، من عند «الغرفة» الأخرى أنه وعلى بعد مسافة (٥٠) خطوة من نقطة الملاحظة، والتي تكون زاويتها شمال - غرب تمس طرف الطريق على خط يجري شرق الجنوب الشرقي، ويكون بذلك، موازياً تماماً لقاعدة التل، كان هنالك جلمود ضخم ارتفاعه تسعة أقدام، وطوله أربع خطوات ونصف وعرضه خطوتان وطرفه الشمالي يبعد (٣٨) خطوة من عند قاعدة التل. ويقع من حوله، على الجانب الغربي، وعلى النصفين الغربيين للجانبين الشمالي والجنوبي -ولكن ليس على الأجزاء الشرقية إطلاقاً- شريط ضيق من صخور صغيرة غير مشذبة.

لم يعد لديَّ أي شكوك بأنني، حقيقة، قد اكتشفت كعبة نجران المفقودة منذ القديم، وبها نصف المطاف[1]. إن الصور التي التقطت في ذلك الوقت تؤكد هذه الصفة للمنظر، وفي إحدى هذه الصور يبدو من المؤكد أن وجه جلمود الكعبة قد كان يحمل في تلك الأزمان القديمة، شكلاً مرسوماً أو منحوتاً بصورة بسيطة لإله ما. والذي ربما كان هو ما قد لاحظته في حينها كضرب من لون متغير على سطح الصخرة. توجد ثلاث كعبات معروفة للعرب أيام الوثنية القديمة، قبل ظهور الإسلام - كعبة مكة، وهي أعظم الثلاثة، وكعبة صنعاء، قيل إنها لا تزال موجودة في مسجد غمدان، غير أنني لم أسمع تأكيداً لهذا من شاهد عيان ذي صلاحية وسلطة وأخيراً كعبة نجران التي اكتشفتها أنا في ٢٥ يونيو ١٩٣٦م. ذكرت ببعض الجهات الرسمية كعبة رابعة قيل هي ذو الخلصة التي تحدثت عنها مسبقاً في موضوع زيارتي إلى خميس مشيط، وبلا شك فإن وجود الكعبة والطواف حولها كانت ظاهرة شائعة في الحضارات العربية الوثنية القديمة، على أنه لم تدم أي من البنايات التي أقيمت لتضاهي الكعبة المشرفة مثل: (القُلَّيْس في

(١) وللمزيد من التفصيلات عن كعبة نجران وذكرها في كتب التراث الإسلامي، انظر: الهمداني، **صفة**، ص ٢٦٨، البكري، **معجم**، مج١، جـ٥، ص٢٦٨ . (ابن جريس).

اليمن)، والتي سبقت الإسلام للقيام بدورها في الطقوس الدينية عدا الكعبة المشرفة في البيت الحرام بمكة المكرمة، والتي يعود تاريخها إلى النبي إبراهيم.

يجري سطح تصلال، من عند قمة الجبل المستدقة المتجهة جنوب – شمال، لطريق الاحتفال، -الذي كان محيطه حسب قراءة عداد سيارتي، (٢٠٠) متر- على زاوية (٣٠٠) درجة لمسافة (٥٠٠) ياردة، ثم يدور على زاوية (٣٤٥) درجة لمسافة (١٠٠) ياردة حيث يصل المرء بعدها إلى علامات أساس معقّدة وبارزة وغريبة، والتي قد تكون قبوراً أو مخططات لغرف معبد. والتي يقود إليها ممشى معبّد أو مخطط على جانب التل، الذي يترفرف في تتابع من درجات سلم عريضة على الجانب الغربي من عند القمة إلى حيث توجد مساحة مستديرة عند مستوى أقل، ومنها يجري الممشى المعبّد عند زاوية (٢٩٥) درجة إلى مسافة (٥٩) خطوة إلى وسط مجمع الغرف -أو مهما كان المقصود منها- التي قد ذكرت أعلاه. كان الاتجاه من عند الممشى الرملي الأسفل إلى القمة بزاوية (١٢٤) درجة وكانت المسافة تزيد قليلاً عن نصف الميل. يقع الطرف الشرقي لسلسلة تصلال على مسافة نصف الميل. وبذلك تكون المسافة الكلية ميلاً واحداً، عند زاوية (٥٠) درجة. يحمل جزء آخر خارجي للسلسلة هذا الممشى الأخير عند زاوية (٣٠٠) درجة مسافة ربع ميل.

يبدأ مجمع الدوائر أو الغرف من قاعدة هذا الجزء من السلسلة ويطل من تجاه الغرب تقريباً. توجد عند قاعدة التل دائرة، من تسع بلكات من الحجارة، قطرها أربع خطوات وتحيط بحجر واحد كبير في مركزها. يأتي ناحية الغرب من هذه فجوة مسافتها عشر خطوات معترضة وفاصلة لها من صف مزدوج من الحجارة

طوله أربع عشرة خطوة وغـالباً ما يكّون ممشى يقود غرباً إلى دائرة أخـرى، معلَّمة بحجارة وقطرها ثلاث خطوات. تفصل فجـوة مسافتها ثلاث خطوات هذه الدائرة من «غرفة» مـستطيلة ذات ثلاثة جوانب مـعلَّمة أما الجانب الرابع فـهو مكشوف، كانت أبعـادها خطوة واحدة تجاه الشـمال والجنوب، وثماني خطوات تجـاه الشرق والغرب. وتقع مباشرة إلى الجنوب من هذه دائرة أخرى، معلمة بلا نظام بحجارة صغـيرة وقطرها خطوتان. تنفصل، أخـيراً، الدائرة الوسطى في الصف الشـمالي بفجوة طولهـا سبع عشرة خطوة عن دائرة أخـرى قطرها ثلاث خطوات على اتجاه مئة وخمس عشرة درجة في خط مستقيم تماماً مع الممشى المعبَّد الذي ذكرناه سابقاً والذي ينفصل عنها بدرب جمال حديث.

توجد على الجانب الشمالي للممـشى المعبَّد دائرة أخرى من الحجارة، قطرها ثلاث خطوات، تقع قريبـاً من درب الجمال، وغـرفة أخرى ثلاثيـة الجوانب يبلغ طولها أربع خطوات ومكشوفة تجاه الشمال الـشرقي، وقريبة منها من جهة الجنوب الشرقي. أعـترف أنني لم أتمكن من تـكوين أية تخمين لمعنى هذه البـقايا الغـريبة لاحتفالات قديمة أو معرفة الغرض منها.

كانت قـمة تصلال، مكوّنة من صـخور شبـيه بقرص العـسل ذات أحواض طبيعية ممتلئـة بالمياه لعدة أشهر بعد موسم أمطار جيد، وربما قد اسـتخدمت موقعاً لذبح القرابين (المكان العالي) أو مـعبد، غير أنني لم أجد من العـلامات ما يدعم هذا الاستـخدام. كان ارتفاعـها (٣٠٠) قدم فـوق مستوى سطح السـهل المجاور وسـيطرت على منظر ممتـاز من كل الجـهات بما في ذلك الطـريق شبـه الدائري، والمقبرة ومعالم تذكارية أخرى تقع «العان» سفح السلسلة.

لا يمكن رؤية واحة نجـران الفعليـة، غير أن مـجرى الوادي من عند مـضيق العان أزلم، الذي يخـرج من خلاله، إلى أن يدخل الدلتا، إلى أسفل، عـبر برك والخضراء إلى الصحراء، فقد كـان واضحاً. أن تصلال مكان يتحاشاه الناس الذين يؤمنون بالخرافـات في هذه الأجزاء، خاصة أثناء الليل، وقـد انزعج دليلي حسن الذي صحبني من الحصينية وذلك حينما طلبت منه أن يقف إلى جوار القبر الكبير في المقبرة لألتقط صورة فوتوغرافـية له. اعترف لي حسن في وقت لاحق أنه كان يخشى إزعاج الجن له والذين يعتقد أنهم يسكنون مثل هذه الأماكن.